الإعجاز البياني في القرآن الكريم

أ.د . محمد محمد داود

- أستاذ. م. علم اللغة بجامعة قناة السويس.
- عميد معهد معلمي القرآن الكريم بالمركز الإسلامي بالعمرانية.
- الخبير بمجمع اللغة العربية.

ملخص البحث

لا يزال القرآن الكريم يستنهض همم الباحثين لمزيد من البحث آفاقه الممتدة التي لا تقف عند نهاية، فكم هي كثيرة وجوه الإعجاز في هذا الكتاب العزيز. ومن بين هذه الوجوه (الإعجاز الصوتي) لذا فقد وقفت في هذا البحث على الظواهر الصوتية التي تفرَّد بها القرآن الكريم والتي تلفت الانتباه، ويظهر وجه من وجه الإعجاز.

والدراسة في هذا البحث: تعالج ما يأتي:

المسألة الأولى: أثر صوتيات القرآن في حفظ اللغة العربية واستقرارها عبر الزمان والمكان.

١. حفظ اللغة العربية حية على ألسنة المسلمين في بقاع العالم.

فإذا ما قُورِنت العربية بغيرها من اللغات وما حدث لها، يظهر أثر القرآن في الاستقرار الصوتي للغة العربية وحفظها من الاندثار.

٢. استقرار اللغة العربية:

فعلى الرغم من أن التطور سُنَّة جارية في كل اللغات وأكثُر مظاهره يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها اللغوية (صوتية، صرفية، نحوية، دلالية)، وما تطور منها كان في إطار المعاني الأصلية وبسببٍ منها.

٣. تهذيب اللغة العربية (تنقية صوتية):

فقد نَحَّى القرآن الكريم عن اللغة الَّتقعُّر في الكلام والألفاظ الحُوشيَّة الثقيلة على السمع. فكان القرآن بمثابة غربال لأصوات العربية، ومصفاةً لها أخرجت منها ما ينبو عنه السمع وما يقل على اللسان، والناظر في هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثله ناصعة للنقاء الصوت والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة إعجازية لا نجد لها مثيلاً في أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة.

المسألة الثانية: الإيقاع والنغم القرآني الخالد.

١. الإيقاع في العربية.

مصطلح الإيقاع في العربية مستمّد من وَقْعِ المطر. وهو في عرف أهل اللغة عبارة عن اتفاق الأصوات والألحان وتوقيعها في الغناء أو العزف.

٢. الإيقـاع في القرآن.

إن موسيقى القرآن وإيقاعه لا ينبعان من جرس الحروف والكلمات، ولا من تجانس الأصوات والتراكيب فحسب، بل من هذا التآزر بين الصوت والمعنى، بين الأنغام الخارجية والنغم الداخلي المنبعث من المعاني وظلالها المرهفة الباعثة على التأمل العميق والتدبر المتأني لكلماته وآياته، فترتعد لَوقْعِه القلوب، وتقشعّر الجلود، ثم تلين وترقّ خاشعة لذكر الله.

المسألة الثالثة: الفاصلة بين التناسق الصوتي ورعاية المعنى.

فالفاصلة في القرآن قيمة صوتية ذات وظيفة دلالية، ورعايتها تؤدي إلى تقديم عنصر أو تأخيره، ليس رعاية للتناسق الصوتي فقط، بل رعاية للمعنى أياضاً، وهذا هو الإعجاز.

المسألة الرابعة: إيجاد الصوت بالمعنى.

فإن من إعجاز القرآن وتفُّرده الرائع في الدلالة: ارتباط الصوت بمعانية ارتباطاً وثيقاً. وقد تأكّد لعلماء العربية أن الجانب الصوتي ركن أساسي في بناء التعبير القرآني في مواضع عدة من التنزيل.

المسألة الخامسة: الإيجاد الصوتي للتراكيب.

فقد ينهض التركيب الصوتي بإيحاءٍ معيَّن منبعث من خصائصه في صورته المركبة، من ذلك قوله تعالى: (فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) حيث وُصف الدعاء في هذه الآية بأنه (عريض) أي كثير ممتدّ، ولعل إيثار العرض على الطول هو الأقوى دلالةً على أَنَّه دعاء الاستصراخ والاستغاثة الملهوفة، وذكر العرض يومئ إلى سعة الدعاء التي تُومئ إلى حركة جاهدة من أعضاء النطق، وهذه الحركة تُومئ بدورها إلى أن ذلك الإنسان قد امتلأت جوانبه بذلك الدعاء.

المسألة السادسة: التناسب والتناسق بين نوع الحركة والمعنى.

التناسب والتناسق بين الحركة (فتحة وكسرة وضمة وسكون) ومعنى الكلمة في سياقها أمْر يثير الانتباه أمام هذه العظمة في لغة القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ).

فبتأمل حركة الكاف في كلمة (ممسك) في الآية نجد أن السكون في الثانية موافق لمعنى الإمساك؛ لما بها من إغلاق وعدم حركة، في حين أن الأولى مفتوحة وهي مناسبة لمعنى قوله تعالى (يفتح).

المسألة السابعة: عولمة الصوت وعالمية النغم القرآني الخالد، تأملات في الواقع المعاصر.

التناسب والتناسق بين الحركة (فتحة وكسرة وضمة وسكون) ومعنى الكلمة في سياقها أمْر يثير الانتباه أمام هذه العظمة في لغة القرآن الكريم. ومن ذلك

قوله تعالى: (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ).

مفهوم العالمية:

يُقصَدَ بالعالمية: سعة الانتشار عبر الزمان والمكان.

ومفهوم العولمة تعني: تنميط الثقافات المتنوعة وقصرها على التشكُّل في قوالب يُقَال إنها عالمية.

عولمة الصوت:

حيث سعى دعاة العولمة إلى تحويل الصوت إلى سلعة يتم تداولها عبر وسائط العولمة الاقتصادية والتكنولوجية كشرائط الكاسيت والفيديو والإذاعة والتليفزيون وبرامج الكمبيوتر وشبكاته.

عالمية الصوت:

فالإبداع العظيم يفرض نفسه في كل زمان ومكان، ومن هنا جاء خلود الصوت القرآني وعظمة أدائه وعمق تأثيره في القلوب والمشاعر.